مجلة جامعة الأزهر بغزة، سلسلة العلوم الإنسانية 2011، المجلد 13، العدد 1(B) ص 1061-1100

الإحالة بالضَّمائر ودورُها في تحقيق الترابط في النَّصِّ القُرآنِيِّ

دراسة وصفيّة تحليليّة

نائل محمّد إسماعيل

وكالة الغوث وتشغيل اللاجئين

تاريخ الاستلام 2010/12/14 تاريخ القبول 2011/04/3

الملخص: تعتبر الإحالة من أهمِّ وسائل الاتّساق النصّيّ ؛ حيث إنّها تحيل إلى العلاقات المعنويّة القائمة داخل النصّ، فتجعل أجزاءه متماسكةً مُشكِّلةً بذلك كُلاً موحّداً، وتعدّ هذه العلاقات الدلاليّة سمةً مميّزةً للنصّ باعتباره وحدةً دلاليّة.

وتقوم ضمائر (الذات والشأن والفصل) بدورٍ بارز في إحكام بنية النصّ القرآنيّ وتماسكها. وتُعدّ البنية الإحالية للضمائر الوسيلة الأكثر قوّةً في صنع التماسك الدلاليّ للنصّ القرآني وتجسيد وحدته العامّة، بل إنّها تعدّ الوسيلة الأكثر قدرةً على تحقيق التآلف ليس على مستوى الآيات فحسب، بل على امتداد النصّ بأكمله ؛ ذلك لأنّها تقرن بين الربط الرصفيّ والربط المفهوميّ، أي بين ما هو لفظيّ وما هو معنويّ.

Abstract: Regarded as a reference of the most important means of textual consistency; it,s transmitting to moral relations existing within the text, making that coherent so the problem of a unified whole, this is indicative relations a distinctive feature of the text as a unit are indicative.

The pronouns perform a great role of the structure of the Holy Quran and reference is considered the most strength method for indicative join of Quran text and it joins between what is pronunciation and moral.

مقدمة

يُعدّ الربط أو الترابط بين المفردات اللّغويّة داخل التركيب النحويّ، وبين أجزاء النصّ الواحد، أهمّ أسس النظام التركيبي للجملة، بل يستحيل فهم المعاني والدلالات الواردة في الكلام دون وجود هذا الترابط بين أجزائه، سواء كان هذا الكلام جملةً أو تركيباً نحويّاً واحداً، أو كان نصّاً من النصوص؛ حيث لابدّ أن يتوافر الترابط بين أجزاء النصّ ومفردات التركيب، حتّى يمكن أن تؤدّي أجزاؤه مجتمعةً ومترابطة معنىً كليّاً مراداً

فيه([1]).

وقد تكون الروابط لفظيّة أو معنويّة، ومن خلال هذا الترابط الحادث بين التراكيب والجمل والفقرات تحدث المعاني التي يريد المتكلم أو الكاتب أن يضفيها على كلامه، ويتكوّن من خلال ذلك أيضاً النصّ، الذي يؤدّي معنىً عامّاً أو كاملاً، سواء كان هذا النص نثراً أو شعراً.

فالرابطُ _ إذن_ وسيلة مهمّة من وسائل الحكم بالنصيّة لنحو النصّ مع مجموعةِ المعايير النصيّة الأخرى (*)، لهذا اهتمَّ به علمُ اللّغة النصيّ تمحيصاً وتفصيلاً وتأمّلاً ؛ حيث ظهر التماسك النصيّ بأشكاله وملامحه موزّعاً ومتنوّعاً في أطرٍ كثيرة، استمدّت قوّتها لا من علم اللّغة النصيّ، ولا من نحو النصّ فحسب، بل من علومٍ كثيرة، ومن هنا تنوّعت تلك الوسائل ([2]).

وعرض اللغويّون لنماذج كثيرة من الربط، منها ([3]):

_ الوصل التشريكي (بالواو والفاء وثمَّ).
_ التعارض بالاستدراك (لكن).
_ المعارضة بالتقابل (لا، بل).
_ الفصل بالتخيير (أو).
_ العلة (كي واللام).
_ الإشارة.
_ الظروف (زمانيّة ومكانيّة).
_ الضمائر.
_ الشرط المتحقّق وغيره، والمستتر وغيره.
_ الغاية (حتّى، إلى، أن).
_ الموصول... إلخ.

" إنّ أشكال الترابط النصيّ سواء كان بأدوات معيّنة أو دون أدوات تستلزم النظر إلى النصّ بوصفه وحدة كاملة ؛ لأنّها استعمالات لغويّة غير عاديّة، ترتكز على عناصر

---

[1] انظر: مصطفى حميدة، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربيّة، الشركة المصريّة العالميّة (لونجمان)، القاهرة _ 1997: ص 195.

*) معايير النصيّة السبعة هي: " السبك، الحبك، القصد، التناص، المقاميّة، الإعلاميّة، القبول".

أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النصّ، دراسة في الدلالة والوظيفة، بحث في كتاب المؤتمر الثالث للعربيّة والدراسات النحويّة (العربيّة بين نحو الجملة ونحو النصّ)، كليّة دار العلوم، جامعة القاهرة _ 2005: ص 523.

[2] انظر: المصدر السابق: ص 523.

[3] المصدر السابق: ص 523.

تماسك لا يصرِّح بها النصّ، وإنّما تُستنتج منه عن طريق أدلّة وقرائن معنويّة وسياقيّة ومعرفيّة " (^{1}).

وجاءت الإحالة لتكون واحدةً من الوسائل المهمّة للربط ؛ حيث استطاعت أن تمزج بين بعض الأنواع السابقة كاستخدام ضمائر الغياب والإشارة واسم الموصول...

معنى الإحالة:

يتضمّن معنى الإحالة الناحيتين اللغوية والاصطلاحيّة كما يلي:

فمن الناحية اللغويّة: الإحالة مصدر الفعل (أحال)، والمعنى العام لهذا الفعل هو التغيّر ونقل الشيء إلى شيء آخر (^{2}). والتغيّر والتحوّل ونقل الشيء إلى شيء غيره ليس بعيداً عن الاستخدام الدلاليّ للإحالة النصيّة، فالتحوّل والتغيّر ونقل الشيء من حالة إلى أخرى لا يتمّ إلا في ظل وجود علاقة قائمة بينهما، تلك العلاقة هي التي سمحت بالتغيّر.

وأمّا من الناحية الاصطلاحيّة: فالإحالة مصطلح قديم، لكنه جديد بمفهوم استخدامه والتوسّع فيه وفي تطبيقاته في علم اللغة النصّي، ولهذا لم يُتفّق على تعريف نهائي له، فاستحقّ أن نتوقّف أمام مفهومه الاصطلاحيّ (^{3}). وقد عرّفها دي بوجراند بأنّها " العلاقة بين العبارات من جهة وبين الأشياء والمواقف في العالم الخارجي الذي تشير إليه العبارات " (^{4}). ويقول جون لاينز في سياق حديثه عن المفهوم الدلاليّ التقليدي للإحالة: " إن العلاقة القائمة بين الأسماء والمسمّيات هي علاقة إحالة: فالأسماء تحيل إلى المسمّيات " (^{5}). وعرفها كلماير بأنّها " العلاقة القائمة بين عنصر لغويّ يطلق عليه (عنصر علاقة) وضمائر يطلق عليها (صيغ الإحالة) (^{6}). ويقدّم تنيير تصوّراً خاصّاً للإحالة، فالإحالة

---

^{1}) سعيد حسن بحيري، علم لغة النصّ، الشركة المصريّة العالميّة للنشر، لونجمان _1997: ص 117.

^{2}) انظر: لسان العرب، والمعجم الوسيط: مادة (حول).

^{3}) أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النصّ: ص 526.

^{4}) روبرت دي بوجراند، النصّ والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسّان، عالم الكتب، القاهرة – 1998: ص172.

^{5}) ج. ب. براون / ج. بول، تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، الرياض – 1997: ص 36.

^{6}) دراسات لغوية تطبيقيّة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة _ 1999: ص 82.

عنده " ربطٌ دلاليّ إضافيّ، لا يطابقه أي ربط تركيبيّ"([1]).

وهناك مؤلّفون (عرب) تناولوا موضوع الإحالة، ولم يقدّموا تعريفاً واضحاً للإحالة، منهم الأزهر الزناد في كتابه (نسيج النصّ)، ومحمد خطّابي في كتابه (لسانيات النصّ).

ويبرّر سعيد بحيري إعراض بعض المؤلفين عن وضع تعريف للإحالة بقوله: " وكان لإعراضنا عن طرح تصورّات مختلفة عن مفهوم الإحالة وعناصرها عدّة أسباب، أهمّها: تجنيب القارئ ما ينشأ عن تقديم وجهات نظر متباينة من خلطٍ واضطراب وغموض"([2]).

إنّ هذا المبرّر الذي طرحه سعيد بحيري يبدو غير مقنع ؛ لأن الباحث، أو القارئ لا يمكنه الاستغناء عن معرفة المفاهيم والمعاني قبل الخوض في أية دراسة، فهي _بلا شكّ_ منطلَقه لبناء بحثه، أو لفهم ما يقرأ.

ويمكننا تعريف الإحالة بأنّها: **علاقة معنويّة بين ألفاظ أو أسماء معيّنة وما تشير إليه من مسمّيات أو أشياء _داخل النصّ أو خارجه_ يدلّ عليها السياق أو المقام، عن طريق ألفاظ أو أدوات محدّدة (كالضمير واسم الإشارة واسم الموصول...)، وتشير إلى مواقف سابقة أو لاحقة في النصّ.**

ونشير إلى أنّ اللّغة تشتمل على نوعين من العناصر يمثّلان قطبي الإحالة، وهما: العنصر الإشاريّ والعنصر الإحاليّ:

أ_ العنصر الإشاريّ: يعرّفه الأزهر الزّنّاد بأنّه " كلّ مكوّن لا يحتاج في فهمه إلى مكوّن آخر يفسّره " ([3])، فقد يكون لفظا دالاّ على حدث أو ذات، كإحالة ضمير المتكلّم (أنا) على ذات صاحبه، وحينئذٍ يرتبط العنصر الإحاليّ بعنصرٍ إشاريٍّ غير لغويٍّ ممثَّلاً بذات المتكلّم، أو موقع ما في الزّمان.

ب_ العنصر الإحاليّ: يعرّفه الأزهر الزّنّاد بقوله: " العنصر الإحالي هو كلّ مكوّن يحتاج

---

[1]) المصدر السابق: ص 82.

[2]) دراسات لغوية تطبيقيّة: ص 92.

[3]) الأزهر الزناد، نسيج النص (بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً)، بيروت–الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي _ 1993: ص 114.

في فهمه إلى مكوّن آخر يفسّره " (1) ؛ وبذلك تكون العناصر الإحاليّة فارغة دلاليّا، ممّا يجعل تفسيرها رهين بربطها بالعناصر الإشاريّة الّتي تعوّضها، ويذكر محمد خطّابي أنّ " العناصر المحيلة كيفما كان نوعها لا تكتفي بذاتها من حيث التأويل ؛ إذ لابدّ من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها، وتتوفّر كلّ لغة طبيعيّة على عناصر تملك خاصيّة الإحالة"(2).

ويمكن من خلال هذه العناصر الإحاليّة أن تتشكّل شبكةٌ من العلاقات الإحاليّة بين العناصر المتباعدة في فضاء النصّ، وينتج عن هذا الانسجام والائتلاف بين الأجزاء المتقاربة والأجزاء المتباعدة بنية متداخلة معقّدة تشكّل الأحداث الاتّصاليّة الّتي تحدّد كم ورود صيغ الإحالة بوجهٍ عام في النصوص (3).

ومن المزايا المهمّة للإحالة والّتي ينبغي الإشارة إليها أنّها قادرة على صنع جسور كبرى للتواصل بين أجزاء النصّ المتباعدة والربط بينها ربطاً واضحاً، وهذا ما يؤكد أهميّة الإحالة في الربط النصيّ، ويشير روبرت دي بوجراند إلى أنه ليس من المستحسن أن نجعل مسافةً كبيرة بين اللّفظ الكنائيّ وما يشترك معه في الإحالة (4).

فالإحالة _إذن_ لا تخضع لقيود نحويّة، إلا أنّها تخضع لقيدٍ دلاليّ: وهو وجوب تطابق الخصائص الدلاليّة بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه (5). فالربط يمكن أن يكون نتيجةَ علاقةٍ إحاليّة حين تنشأُ علاقةٌ إحاليّة بين جملتين مستقلّتين، وحين تكون العلاقةُ بينهما ذات طبيعة دلاليّة غير تركيبيّة على الإطلاق، فالربط من خلالها يكون ضعيفاً، بل وضئيلاً (6).

وتقوم الإحالة على نوعين من الربط الدلاليّ:

1_ ربط دلاليّ يوافق الربط البنيويّ (التركيبيّ).

2_ ربط دلاليّ إضافيّ يمثّل الإحالة، وهو الربط الإحاليّ.

---

(1) المصدر السابق: ص 114.

(2) محمّد خطّابي، لسانيّات النصّ، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء _ 1991: ص 17.

(3) انظر: سعيد حسن بحيري، ظواهر تركيبيّة في مقابسات أبي حيّان التوحيدي: ص 255.

(4) انظر: النصّ والخطاب والإجراء: ص 327.

(5) انظر: محمّد خطّابي، لسانيّات النصّ: ص 17.

(6) انظر: سعيد حسن بحيري، نظريّة التبعيّة في التحليل النحويّ، مكتبة الأنجلو مصريّة _ 1988: ص273

وهذا الربط الدلاليّ هو" الذي يمدّ جسور الاتّصال بين الأجزاء المتباعدة في النصّ، إذ تقوم شبكةٌ من العلاقات الإحاليّة المتباعدة في فضاء النصّ، فتجتمع في كلٍّ واحدٍ عناصره المتناغمة"([1]).

ويمكن أن تكون عناصر الإحالة_بشكل عامّ_ مقاميّةً أونصيّة، فإذا كانت نصيّة فإنّها يمكن أن تحيل إلى السابق والّلاحق. فالإحالة على السابق، أو الإحالة بالعودة، أو الإحالة القبليّة تعود على مفسّر سبق التلفّظ به، وهي أكثر دوراناً في الكلام، والإحالة على الّلاحق وتسمّى (بعديّة)، وهي تعود على عنصر إشاري مذكور بعدها في النصّ ولاحق عليها([2]).

إذن، الإحالة داخل النصّ هي إحالة على العناصر اللّغويّة الواردة في الملفوظ سابقة كانت أو لاحقة، فالإحالة على السابق تعود على " مفسّر" سبق التلفّظ به، وفيها يجري تعريض لفظ (المفسّر) الّذي كان المفروض أن يظهر حيث يرد المضمر، وتشتمل الإحالة على نوع آخر يتمثّل في تكرار لفظ أو عدد من الألفاظ في بداية كلّ جملة من جمل النصّ قصد التأكيد، ويطلق على هذا النوع (الإحالة التكراريّة)، ومن أمثلة الإحالة التكراريّة إلى الّلاحق ضمير الشأن في العربيّة ([3]).

عناصر الإحالة:

تتوزّع عناصر الإحالة كما يلي([4]):

1_ المتكلّم أو الكاتب صانع النصّ، وبقصده المعنوي تتمّ الإحالة إلى ما أراد ؛ حيث يشير علماء النصّ إلى أنّ الإحالة عملٌ إنسانيّ.

2_ اللّفظ المحيل، وهذا العنصر الإحالي ينبغي أن يتجسّد إمّا ظاهراً أو مقدّراً، كالضمير أو الإشارة، وهو الذي سيحوّلنا ويغيرنا من اتّجاه خارج النصّ إلى داخله.

3_ المحال إليه، وهو موجود إمّا خارج النصّ أو داخله من كلمات أو عبارات أو دلالات، وتفيد معرفة الإنسان بالنصّ وفهمه في الوصول إلى المحال إليه.

4- العلاقة بين اللّفظ المحيل والمحال إليه، والمفروض أن يكون التطابق مجسّداً بين

---

[1] سعيد حسن بحيري، دراسات لغويّة تطبيقيّة: ص 82.

[2] انظر: لسانيّات النصّ: ص 17.

[3] انظر: دراسات لغويّة تطبيقيّة: ص 88_89.

[4] الإحالة في نحو النصّ: ص 529.

اللّفظ المحيل والمحال إليه، بمعنى أنّ الإحالة تأتي عن طريق ألفاظ واجبة الصدق، بوصف المحال إليه شيئاً موجوداً في عالم الواقع والحقيقة.

إنّ ثمّة صعوبة كبيرة تجابه من يعالج نظام الإحالة في اللُّغة العربيّة، تتمثّلُ في: تعدّد المحال إليه في الإحالة النصّية بوجهٍ خاص، واختلاف النحاة في التفسير التركيبي والدلاليّ لعنصر الإحالة، وخفاء العلاقة بين العنصر الإحاليّ والعنصر الإشاريّ وغموضها، حين يتعذّر تحقّق المطابقة في الجنس والعدد ([1]).

أدوات (الاتّساق) الإحاليّ:

وهي تلك الألفاظ التي نعتمد عليها لتحديد المحال إليه داخل النص أو خارجه، وقد أطلق عليها هاليدي (أدوات) لا نعتمد في فهمنا لها على معناها الخاص، بل على إسنادها إلى شيء آخر ([2])، وأطلق عليها روبرت دي بوجراند (الألفاظ الكنائيّة) ([3])، ووضع لها سمات، وأطلق الأزهر الزناد عليها (العناصر الإحاليّة) في اللّغة وعدّها من قبيل المُعوِّضات، وأشار إلى أنّها تأتي تعويضاً عن وحدات معجميّة يمكن أن نطلق عليها مصطلح العنصر الإشاري ([4])، وتشمل كل ما يشير إلى ذات أو موقع أو زمن، وتنقسم العناصر الإحاليّة عنده إلى:

1_ الضمائر. 2_ أسماء الإشارة.

وقد أشار محمد خطّابي إلى أنّها عناصر تملك خاصيّة الإحالة، وتتوفّر كل لغة طبيعيّة على تلك العناصر الإحاليّة التي قسّمها هاليدي ورقية حسن في كتابهما (الاتّساق) إلى([5]):

1_ الضمائر 2_ أسماء الإشارة 3_ أدوات المقارنة

ونحن نميل إلى الرأي القائل بأنها أدوات تمتلك خاصيّة الإحالة، وهي عناصر تحفّز المتلقّي على البحث في مكانٍ آخر عن معناها، ومتى كان الشيءُ المحالُ إليه داخلَ النصّ؛

---

[1] دراسات لغويّة تطبيقيّة: ص 93_ 94.

[2] انظر: أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النص _ دراسة في الدلالة والوظيفة: ص 532.

[3] روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء: ص 320.

[4] انظر: الأزهر الزناد، نسيج النص: ص 115 _ 116.

[5] انظر: لسانيّات النص: ص 18.

فإنّ تلك الأدوات تلعب دوراً أساسيّاً في تحقيق التماسك النصّي.

وسأخصّص بحثي هذا لدراسة واحدة من أدوات الاتّساق الإحاليّ، وهي (الضمائر) بوصفها أكثر وسائل الربط الإحاليّ شيوعاً وتأثيراً في ترابط النصّ القرآنيّ:

الضمائر:

الضمائر: جمع ضمير. والضمير: هو السرّ، والشيء الذي تضمره في قلبك، والضمير والمضمر بمعنى واحد، مِن أضمرتُ الشيء: أخفيته ([1]).

والضمير اسمٌ جامد مبنيّ. وبسبب بنائه لا يُثنّى، ولا يُجمع، فلا تلحقه علامة التثنية أو الجمع، وإنّما يدلّ بذاته وصيغته على المفرد أو المثنّى أو الجمع (المذكّر أو المؤنّث)([2]).

والضمائر هي الأصل في الربط بين الأسماء، وقد رأى البعض أنَّ الرابط من الضمائر هو الضمائر البارزة، فحسب ؛ ذلك أنّ الضمير المستتر _في نظرهم_ يُعدُّ قرينةً معنويّة تُستنبط بالعقل، ولا يُشيرُ إليها لفظ ([3]). والحقيقة أن الضمير يعتبر رابطاً من الروابط الاسميّة، سواء كان بارزاً أو مستتراً ؛ ذلك لأنه _وإن كان مستتراً، ويُدرك بالعقل، ويُستنبط من خلال المعنى_ فإنّه في بعض المواضع يأتي رابطاً للجملة التي يستتر فيها بالجملة التي قبلها، نحو قوله تعالى: ﴿ **وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ** ﴾ (يس: 20)، فالضمير المستتر في (**يَسْعَى**) يربط الجملة بما قبلها.

وتنقسم الضمائر إلى: وجوديّة، وملكيّة.

والوجوديّة تنقسم إلى: ضمائر للمتكلّم أو للمخاطب أو للغائب، والملكيّة تنقسم _كذلك_ إلى: ضمائر للمتكلّم وللمخاطب وللغائب.

وسواء كانت الضمائر وجوديّة أو ملكيّة فإنّ الضمائر الدالّة أو المحيلة إلى متكلّم أو مخاطب إنّما تحيل إلى شيء خارج النص، كالضمير أنا، أو نحن، فإنّه يصدق على ذات خارج النصّ، وكذلك عندما يخاطب الكاتب المتلقّي فيستخدم الضمير أنت أو أنتم أو أنتنَّ ؛

---

[1] انظر: لسان العرب، طبعة دار صادر، بيروت، ط1- 1990: مادّة (ضمر).

[2] انظر: عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، ط1_1991: 1/217- 218.

[3] انظر: مصطفى حميدة، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربيّة: ص 196.

فإنّه يُحيل إلى مجموعة من الناس، هم أيضاً خارج النص، ولهذا لا يُعوّل علماء اللغة النصيّون على هذه الضمائر في عمليّة الاتّساق النصّي، وإنّما يعوّلون كثيراً على ضمائر الغياب التي تُحيل _غالباً_ إلى شيء داخل النصّ، وتكون إحالة نصيّة، ومن ثمّ تُجبر المتلقّي على البحث عمّا يعود عليه الضمير، فتؤدّي _بذلك_ دوراً هامّاً في تماسك النصّ واتّساقه (1).

وتُعدّ ظاهرة التسلسُل الضميريّ بوجهٍ خاص شرطاً من الشروط النحويّة التركيبيّة الأساسيّة لتماسك النصّ، فأشكال التسلسل الضميري تلك هي الوسيلة الحاسمة لتشكيل النصّ، ومن ثمّ يُعرَّف النصّ بأنّه نسيجٌ من الكلمات يترابطُ بعضُها ببعض من خلال تسلسلٍ ضميريٍّ، تجمعُ عناصره المختلفة والمتباعدة في كلٍّ واحد، هو ما نطلقُ عليه مصطلح نصّ (2)، فكل الجمل الّتي يربطها التسلسل الضميري تكون _ إذن_ نصّاً، وحيثما تتوقّف سلسلة الإضمار أو تحلّ محلّها أخرى فإنّه يبدأ بذلك نصّ جديد.

مرجعيّة الضمير وإزالة اللبس:

إعادة الضمير إلى مرجعه من أهم المهام التي يقوم بها مفسِّرُ النصّ؛ لأنها تزيل عنه اللبس، وتوضح دلالاته، ولا شك أن اللبس يحولُ دونَ تماسكِ النص، كما أن إزالة اللبس عن النص تقوِّي تماسكَه، وتبيِّن الترابط بين أجزائه. ولمَّا كان ضميرا المتكلم والمخاطب يرجعان إلى المشاركيْن في عملية التخاطب، فإن مَهمَّة تحديد ما يشيران إليه عملية سهلة عادة ؛ لعدم إمكان اللبس فيها، ولكنَّ الصعوبة قد تكتنف عملية إحالة ضمير الغائب إلى صاحبه ؛ لأنه عارٍ عن المشاهدة، فاحتيج إلى عود الضمير ما يفسره. وإنما يقتضي ضمير الغائب تقدم المفسّر عليه لأنه وُضع معرفة لا بنفسه، بل بسبب ما يعود عليه، فإن ذكرته ولم يتقدمه مفسره بقي مبهما منكّراً لا يُعرف المراد به حتى يأتي مفسره بعده، وتنكيره خلاف وضعه.

ولعلّ الحامل على تأخير مفسره عنه هو قصد التشويق في ذكر ذلك المفسّر، بأن يذكروا أولاً شيئاً مبهماً، حتى تتشوق نفس السامع إلى العثور على المراد به، ثم يفسروه فيكون أوقع في

---

[1] انظر: محمد خطّابي، لسانيّات النصّ: ص 18. وأحمد عفيفي، الإحالة في نحو النصّ: ص 533.

[2] انظر: الأزهر الزناد، نسيج النصّ: ص 12.

النفس؛ لأن التفسير يحصل بعد ذكره مبهماً، نحو قوله تعالى: ﴿ **سَآءَ مَثَلاً ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ** ﴾ (الأعراف: 177)، وقوله تعالى: ﴿ **كَبُرَتۡ كَلِمَةً تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ** ﴾ (الكهف: 5)، وقوله تعالى: ﴿ **بِئۡسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلاً** ﴾ (الكهف: 50). فالاسم المميز المنصوب في الأمثلة السابقة إنما جيء به لغرض تمييز الضمير المستتر في الفعل وتفسيره، فنصب على التمييز مع عدم انفصاله (1).

وقد يأتي اللبس من تعدّد المحال إليه (العنصر الإشاريّ)، فتتعدّد بالتالي الاحتمالات والتأويلات، فيُلجأ عندئذٍ إلى ترجيح أحدها اعتماداً على مهارة المفسّر أو المتلقّي أو بالاحتكام إلى قرائن معيّنة، ففي قوله تعالى: ﴿ **كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ** ﴾ (البقرة: 213). الفعل (**لِيَحۡكُم**) لابدّ من إسناده إلى شيء تقدّم ذكره، وقد تقدّم ذكر ثلاثة عناصر إشاريّة، وأقربها إلى هذا اللفظ (**ٱلۡكِتَـٰب**)، ثمَّ (**ٱلنَّبِيِّـۧن**)، ثمّ (**ٱلله**)، فإن كان كلٌّ واحدٍ منها صحيحاً، فيكون المعنى: ليحكم الله، أو النبيّ المنزّل، أو الكتاب، ثمّ إنّ كلَّ واحد من هذه الاحتمالات يختصُّ بوجهٍ ترجيح. وإسناد الحكم إلى الكتاب مجاز، وإذا جاز أن يكون هدىً وشفاء جاز أن يكون حاكماً، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِى لِلَّتِى هِىَ أَقۡوَمُ** ﴾ (الإسراء: 9)، فيفيد بذلك تفخيم القرآن وتعظيم شأنه.

نلاحظ أنّ تعدّد الإحالة يمكن تفسيره بقرينتين: إحداهما نحويّة، وهي عود الضمير على العنصر الإشاريّ الأقرب، والثانية بلاغيّة تعتمد على لعبة الحقيقة والمجاز، فإذا عاد الضمير المستتر على الله كانت الإحالة حقيقيّة ؛ لأن الله بعث النبيين وأنزل الكتب. وإذا كانت الإحالة إلى الكتاب كان الإسنادُ مجازيّاً بحكم الاستعمال المتعارف عليه (2).

ومثال ذلك _أيضاً_ قوله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَـٰهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ**

---

[1] انظر: شرح الرضي على الكافية: 406/2. ومغني اللبيب: 533/5-534.

[2] انظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، ط1- 1981: 15/6.

أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة: 146). فهناك ثلاثة احتمالات لما يعود عليه الضمير المنصوب في (**يَعۡرِفُونَه**): فإمّا أنه عائدٌ على الرسول، وإن لم يسبق ذكرٌ لمعاد مناسب لضمير الغيبة، لكنّه قد علم من الآيات السابقة وتكرّر فيها: ﴿ **وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ** ﴾ (البقرة: 143)، وقوله: ﴿ **قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ حَيۡثُ** ﴾ (البقرة: 144). فالإتيان بضمير الغيبة وهو على تقدير مضاف، أي يعرفون صدقه. وإمّا أن يعود إلى الحقّ في قوله السابق (**لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ**) فيشمل رسالة الرسول وجميع ما جاء به، وإمّا أن يعود إلى العلم في قوله ﴿ **مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ** ﴾ (البقرة: 145).

يتّضح من هذه الاحتمالات أن الضمير يُحيلُ إلى سابق مذكور صراحةً، فإذا جعل الضمير محيلاً إلى الرسول فقد جاء ظاهراً مرّة واحدة في الآية (143)، ومستمرّاً في الآيات اللاحقة بضمير الخطاب المتّصل، والضمير في هذه الحالة يُحيل إلى عنصرٍ فقط، وإذا كان محيلاً إلى الحقّ يصبح عنصراً محيلاً إلى خطاب، وهكذا تكون الضمائر محيلة إحالة مزدوجة ([1]). وبناء عليه فإنّ الضمير _كما يظهر من التأويلات والتخريجات التي تدفع اللبس_ يُساهم بشكلٍ فعّال في اتّساق الخطاب القرآنيّ.

مرجع الضمير (الإحالة) في القرآن الكريم (2):

لابدَّ للضمير من مرجع يعود إليه ويكون ملفوظاً به سابقاً مطابقاً به، نحو: ﴿ **وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ** ﴾ (هود: 42)، و ﴿ **وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ** ﴾ (طه: ١٢١)، و﴿ **إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ** ﴾ (النور: 40). فضمير الغائب في (**ٱبۡنَهُۥ**)، و(**رَبَّهُۥ**)، و(**يَدَهُۥ**) يعود على

---

[1] لسانيّات النصّ: ص 175.

[2] انظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد متولي منصور، دار التـراث، القـاهرة، ط1 _ 2007: 308/2.

مرجع سابقٍ له ومتعلّق به ويطابقه، وهو على التوالي: (**نُوح**)، و(**ءَادَم**)، والضمير العائد على الكافر في الفعل (**أَخْرَج**).

أو متضمِّناً له، نحو: ﴿ **ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ (المائدة: 8)، فالضمير عائد على العدل المتضمن له (**ٱعْدِلُوا**)، ﴿ **وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا** ﴾ (النساء: 8)، فالضمير في (**مِّنْه**) يشير _ضمناً_ إلى (المقسوم) لدلالة القسمة عليه، أي: فارزقوهم من المقسوم.

أو متأخّراً لفظاً لا رتبةً مطابقاً، نحو قوله تعالى: ﴿ **فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ** ﴾ (طه: 67)، فالضمير في (**نَفْسِهِ**) يعود على مرجع متأخر لفظاً، لا رتبة هو العنصر الإشاريّ (**مُّوسَى**)، وقوله تعالى: ﴿ **وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ** ﴾ (القصص: 78)، فضمير الغائبين في (**ذُنُوبِهِم**) يعود على مرجع متأخر عنه، وهو (**ٱلْمُجْرِمُونَ**)، وفي قوله تعالى: ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ** ﴾ (الرحمن: ٣٩). عاد الضمير في (**ذَنْبِهِ**) على مرجع مذكور في الآية، ولكنّه متأخّر عنه لفظاً، وهو (**إِنس**)، فساهم ذلك في تحقيق الربط التركيبيّ والإحاليّ في الآيات.

وقد يدلُّ عليه السياقُ فيُضمر ثقةً بفهم السامع، نحو قوله تعالى: ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ** ﴾ (الرحمن: 26)، أي (الأرض)، و ﴿ **حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ** ﴾ (ص: 32)، فإنَّ المراد _والله أعلم_ حتّى توارت الشمسُ وراء الأفق، فأضمرَ في الفعل (**تَوَارَت**) ضميراً يعود إلى الشمس _وإن لم يجرِ لها ذكرٌ في الكلام_ اعتماداً على أنَّ السامع سيفهم المقصود ويعرف المراد من سياق الكلام، و﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ** ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، أي (صحابة رسول الله).

ولابدّ لهذا الضمير من متقدّم يرجع إليه، تقدّماً لفظيّاً أو معنويّاً، والتقدّم اللّفظيّ: أن يذكر المفسّر قبل الضمير ذكراً صريحاً، واعلم أنّه إذا تقدّم ممّا يصلح للتفسير شيئان فصاعداً، فالمفسّر هو الأقرب لا غير، ويجوز مع القرينة أن يكون للأبعد ([1]).

ونشير هنا إلى أنّ عودة الضمير تتأثّر بالمعنى، حتّى إنّه قد يؤثّر في عودة الضمير إلى كلمة في السياق، وتقدير مرجع هذا الضمير _بالطبع_ يعود إلى المعنى. ويلجأ النحاة والمفسّرون إلى تفسيراتٍ نحويّة وأخرى دلاليّة في تحديد مرجع الضمير، وقد تجبرهم تلك التفسيرات الدلاليّة على اللُّجوء إلى ظروفٍ خارج النصّ، هي سياق الحال، فيُحَكِّمونها في المرجع ([2]).

وسيحاول الباحث تتبّع ظاهرة الربط الإحاليّ بالضمائر في القرآن الكريم بأنواعها الثلاثة: ضمير الذات، وضمير الشأن، وضمير الفصل، على مستوى الجملة ومستوى النصّ:

أوّلاً/البنية الإحاليّة لضمير الذات:

للإحالة أثرٌ بارزٌ في تعزيز بنية التتابع الدلالي الإسناديّ في النصّ القرآنيّ ؛ وذلك لأنها تشكّل الإطار الدلاليّ لا الشكليّ للنصيّة ؛ إذ تقوم بربط السابق باللاحق شكلاً ودلالة، وقد يحدث العكس. وقد تنوَّعت العناصر الإحالية في النصّ القرآني، فهناك الضمائر، وهناك العناصر المعجمية التي تحيل إلى مقاطع محددة داخل الملفوظ، ويتحقّق هذا النوع من الربط في النصّ القرآني بلا خلاف على المستوى الداخليّ اللغوي، أو على المستوى الخارجيّ خارج اللغة، وقد يتقدَّم عنصر الإحالة في بنية مؤكّدة، ويتأخّر عنصر الإشارة المفسّرة للإبهام المتقدّم نحو قوله تعالى: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ** ﴾ (يس: 69)، حيث فسّر العنصر الإشاريّ المتأخّر **(ذِكْر)** معنى عنصر الإحالة المبهم **(هُو)**؛ لأن الخبر يطابق المبتدأ ويفسّره فأُزيل بذلك الإبهام والغموض، ودُحِضَ اتّهامُ المشركين للرسول بقول الشعر في الكلام السابق ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ** ﴾ (يس: 68)، وفي قوله تعالى: ﴿ **إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** ﴾ (المؤمنون: 37)، الضمير **(هِى)** لا يُعلم معناه إلا بما يتلوه، وهو قوله

---

[1] انظر: شرح الرضي على الكافية، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط2- 1996: 2/404.

[2] انظر: محمّد أحمد خضير، دور السياق في تقدير مرجع الضمير، مجلّة علوم اللّغة، المجلّد الأول، العدد الأوّل، دار غريب_1999: ص 69، 96، 102.

(**حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا**)، فكأنّ أصل الكلام: (إنِ الحياةُ إلا الحياةُ الدنيا)، ثمّ وضع (**هِيَ**) موضع الحياة ؛ لأنّ الخبر يدلّ عليها ويُبيّنها. وقوله تعالى: ﴿ **إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٌ يُوحَىٰ** ﴾ (النجم: 4). فالضمير (**هُو**) يشير إلى الكلام الذي ينطق به الرسول، أي القرآن، ويفسّره العنصر الإشاري اللاحق، وهو قوله (**وَحۡيٌ يُوحَىٰ**).

ففي النصوص السابقة يبدأ الحديث كما رأينا بمبهم لا يعرف السامع مدلوله ؛ لأنه ضمير غائب ليس له مرجع سابق، والشائع من أمره أن يُذكر مرجعه قبله، ولهذا يتساءل السامع عنه، ويستشرف المراد به، ثمَّ يجيء مرجعه، فيكشف الغموض عنه، فيستريح السامع إلى هذا ويطيب به نفساً. والعنصر الإشاريّ (الاسم المُشار إليه) هو الذي أقام علاقة الربط مع الضمير المحيل (العنصر الإحاليّ)، فتحقّق الوضوح وأُزيل الإبهام عن الضمير، فأصبح بعد الذكر معرفة بكونه مدار الحديث. وفي ذلك يقول عبّاس حسن: "الضمائر كلّها لا تخلو من إبهام وغموض، ولابدَّ لها من شيء يزيل إبهامها، ويفسّرُ غموضها، فأمّا المتكلّم والمخاطب فيفسّرهما وجود صاحبهما وقت الكلام، وأمّا ضمير الغائب فصاحبه غير معروف ؛ لأنه غير حاضر ولا مُشاهَد، فلابدّ لهذا الضمير من شيء يُفسّره ويُوضّح المراد منه " ([1]).

وننتقل إلى شكلٍ آخر من أشكال البنية الإحاليّة، وهي(ضمير المتكلّم الجمع الدالّ على الذات الإلهيّة) ؛ حيث تتضمّنُ الأفعال المسندة إلى ضمير المتكلّم الجمع في القرآن الكريم _وهي كثيرة جدّاً_ دلالاتٍ ينسبها الخالق لنفسه في صيغة مؤكّدة تردّ شكّ المُشكّكين والمُتشكّكين، نحو قوله تعالى:

﴿ **إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ** ﴾ و ﴿ **نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ** ﴾ (يوسف: 2_3). وقوله تعالى:

﴿ **إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلاً** ﴾ و﴿ **وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدًا جُرُزًا** ﴾ (الكهف: 7_8). وقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ**

---

[1]) انظر: النحو الوافي: 255/1.

لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ (القمر: 32) فالحديث في الآيات السابقة عن الخالق، فهو يتحدّث عن نفسه، وقد ورد عنصر الإحالة في مطلع الآية، سواء أذُكِرَ العنصر الإشاريّ متقدّماً في السورة أو متأخراً، أو لم يُذكر، وتكون الإشارة إلى خارج النصّ: (السورة أو الآية أو مجموعة الآيات).

وقد يكون العنصر الإشاريّ المتقدّم عنصراً معجميّاً دالاً على مسمّى مبهم، نحو قوله تعالى في سورة (مريم: 20): ﴿ **قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا** ﴾ يؤكّده العنصر الإحاليّ العائد عليه في الآية التالية: ﴿ **قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا** ﴾، فقد أشار العنصر الإحاليّ في (لنجعله) إلى عنصر معجميّ إشاريّ سابق داخل النصّ، وهو لفظة (غلام)، وإلى عنصر إشاريّ آخر لاحق داخل النصّ _أيضاً_ وهو (عيسى عليه السلام)، يشير إليه قوله تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ** ﴾ (مريم: 34). وقد يكون العنصر الإشاريّ المتقدّم عنصراً معجميّاً دالاً _صراحةً_ على أحد الأنبياء، نحو قوله تعالى: ﴿ **وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ** ﴾ (البقرة: 124)، فـ(**إِبۡرَٰهِـۧمَ**) مفعولٌ مقدمٌ، وهو واجبُ التقديمِ عند جمهورِ النحاةِ ؛ لأنه متى اتَّصل بالفاعلِ ضميرٌ يعودُ على المفعولِ وَجَبَ تقديمُه لئلا يعودَ الضميرُ على متأخِّرٍ لفظاً ورتبةً ([1]).

1_ الإحالة المتقدّمة:

قد تتقدّم البنية الإحالية (الضمير)، ثمّ يظهر الاسم (العنصر الإشاري) تالياً مرّة أخرى للتأكيد، نحو قوله تعالى: ﴿ **فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ** ﴾ (القصص: 13). فالعنصر الإشاريّ اسم الجلالة (**ٱللَّه**) جاء تأكيداً لضمير الذات في (**فَرَدَدۡنَٰهُ**) المتقدّم. وقد يتقدّم الضمير (العنصر

---

[1]) انظر: الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، صيدا_ بيروت، 2006: ص 58.

الإحالي) تأكيداً لإحالة سابقة، كما في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (يوسف: 3)، حيث جاء العنصر الإحاليّ (نَحْن) تأكيداً لإحالة سابقة هي ضمير التعظيم (إِنَّا) في الآية التي سبقتها: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف: 2). وكذلك الضمير (نَّحْن) في قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ (الكهف: 13)، يؤكّد الضميرين في (فَضَرَبْنَا) و(بَعَثْنَٰهُم) في الآيتين السابقتين، وهما: قوله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ و﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ (الكهف: 11_12). وبذلك تُسهم الإحالات المتقدّمة في تحقيق الترابط الدلاليّ على مستوى النصّ.

وقد يتأخّر العنصر الإحاليّ في الآية نفسها التي ورد فيها العنصر الإشاريّ، أو في الآيات التالية، عندما تتقدّم الإشارة إلى شيء جليل وعظيم، يريد الخالق _عزَّ وجلَّ_ أن ينسب فعله وإبداعه إلى نفسه، في صورة جليّة لا تحتملُ الشكَّ، نحو قوله تعالى في مطلع سورة (الدُّخان): ﴿ حمٓ، وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ، إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ (الدخان: 1_3)، فقد اجتمع عنصران إحاليان في (أَنزَلْنَٰه) أحدهما ضمير التعظيم العائد على الخالق، والآخر هو ضمير الغائب العائد على (ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِين) في الآية السابقة، وفي الجمع بين الضميرين إشارة إلى شيء جليل من إبداع الخالق _عزّ وجلّ_ ألا وهو القرآن الكريم. وفي قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ (طه: 67) فالهاء في (نَفْسِهِۦ) عائدة إلى موسى وإن كان متأخّراً لفظاً ؛ لأنّ موسى في تقدير التقديم، والضمير في تقدير التأخير (1). ولا يخفى ما في هذه الإحالة المتأخّرة من قيمة في تحقيق الاتّساق والانسجام.

---

(1) انظر: الزمخشري، الكشّاف، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1_ 1998: 354/6، والشوكاني، فتح القدير: 530/5.

وفي سورة (ق) نجد السياقات كلّها تُمهّد للبنية الإحالية المتأخّرة، وهي تصوير مشاهد يوم القيامة، فنلتقي بسياقاتٍ تدور حول هذه المشاهد: ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ، وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ، وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ، لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ، وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ، أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ، مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ، ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ (ق: 19_26)، ونجد حديثاً عن النار يُقابله حديثٌ عن الجنّة، والقدرة على الإهلاك في مقابل القدرة على الخلق: ﴿ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ، وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ، هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ، مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ، ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ، لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴾ (ق: 30_35)، كلّها آيات ودلائل تُحفّز الأذهان لضرورة الإذعان والاستسلام للإله القادر على هذه الأفعال. ثمَّ تأتي البنية الإحاليّة عقب تلك الصور والمشاهد متمثّلةً في فعليّ (نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ): ﴿ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ، يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ، إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (ق: 41_43). فالله هو وحده لا شريك له الذي يحيي الخلق من العدم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ويُميتهم لآجالهم التي قدرها، أو: نحيي من نريد إحياءه بإيجاد الحياة فيه، ونميت من نريد إماتته بإزالة الحياة منه. والآيات _الأخيرة_ تُحيل إلى المعاني التي تضمّنتها السياقات السابقة وتؤكّد حدوثها.

وفي سورة (الحجر) _كذلك_ نجد السياقات تقدمت على البنية الإحالية، تصويراً للفعل المؤكّد في هذه البنية: ﴿ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾ (الحجر: 23). فيكون فعلا (الإحياء والإماتة) في هاتين الحالتين بنية إحالية إلى متقدّم، من خلال تقدّم أداة توكيد (إنَّ) والضمير المتّصل الدالّ على الذات الإلهيّة، فهي الذات المحوريّة التي تدور حولها كلّ الذوات

الأخرى الواردة في النصّ، ثمّ تكرار ضمير الفصل (**نَحْنُ**) للدلالة على التوكيد والحصر. ولذلك تكون كلّ الإحالات اللغويّة التي يعملُ فيها عامل الإحالة على المستوى الداخليّ متداخلة مع الإحالة الخارجيّة تداخلاً شديداً بحيث يصعبُ الفصل بينهما ؛ ذلك أنَّ لفظ الجلالة إذا ورد عنصراً معجميّاً إشاريّاً يفسّر الإحالة داخل النصّ ؛ فإنَّه لا يلتزم موقعاً بعينه في علاقته بالضمير المبهم المحيل إليه، فقد يتقدّم عليه أو يتأخّر عنه، ثمَّ يكون وروده بعد ذلك توكيداً لأسباب تقتضيها دلالة السياق.

2_ الإحالة المتأخّرة:

ويكون الأمر المُحال إليه في أغلب السياقات (الله تعالى) أو ما يختصّ به ؛ حيث تُهيّئ الجمل للإشارة إلى شيء عظيم، كما أنَّ الجمل التالية تأتي مؤكّدة لهذه الدلالة. يقول الله تعالى في سورة (الواقعة): ﴿ **إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ** ﴾ (الواقعة: 77)، ثمَّ يقول بعدها: ﴿ **فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ، لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ، تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ (الواقعة: 78_80)، وهي آياتٌ مفسّرة للضمير المبهم المتقدّم في (**إِنَّهُۥ**).

والصورة نفسها نجدها في سورة (التكوير) ؛ حيث يقول تعالى: ﴿ **إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ** ﴾ (التكوير: 19) ثمَّ تأتي الآيات التالية، وهي قوله تعالى: ﴿ **ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ، مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ، وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ** ﴾ (التكوير: 20_22) مفسرة لضمير الغيبة في (**إِنَّهُۥ**)، ومعظّمة لحامل الرسالة _صلّى الله عليه وسلّم.

وفي سورة (الحاقّة) قوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ، وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ، وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ، تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ (الحاقّة: 40_43)، تأتي آياتٌ أخرى مفسّرة للضمير، بلَ ويتصاعد التفسير والتوكيد بدرجة كبيرة حين تتكرّر الإشارة إلى الموضوع ذاته في آياتٍ مماثلة، هي قوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ** ﴾ (الحاقّة: 48)، وقوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ، وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ** ﴾ (الحاقّة: 50_51)؛ وتأتي _كذلك_ مُعضّدةً ومعظّمةً لرسالة النبي _صلى الله عليه وسلّم.

وفي سورة (الطارق) نلتقي بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴾ (الطارق: 8)، (إِنَّهُۥ): (الضمير للخالق، لدلالة الخلق عليه. ومعناه: إنّ ذلك الذي خلق الإنسان ابتداء من نطفة) قادرٌ عَلَى رَجْعِهِ (على إعادته خصوصاً) (1)، وقد سُبقت هذه الآيةُ بآياتٍ تُمهّد للفكرة التي تدور حولها آيات السورة، وهي أنَّ الخالق (وهو مركز الإحالة خارج النص) يوجّه أمراً للإنسان (عنصر معجمي داخل النصّ)، بالنظر والتفكّر في كيفيّة خلقه من عدم، ثمَّ إحيائه بعد الموت: ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ، يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ (الطارق: 5_7).

وفي سورة (البروج) نجد أنَّ التوكيد يتصاعدُ تلبيةً لظروف المقام، فقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ (البروج: 13) قد سبقَ بآيتين تمهّدان وتُهيّئان الجوّ العام لهذه الإحالة، حين يتوعّد أصحاب الفتنة بالخسران، ويعد المؤمنين بالفوز، ويقابل العذاب بالفوز، وكلاهما من فعله _سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ، إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ (البروج: 11_12)، والإحالة هنا إلى عنصر معجمي داخل النصّ هو (رَبِّكَ). والآية استئناف خوطب به النبي _صلى الله عليه وسلم_ مبيّنة لما عند الله سبحانه من الجزاء لمن عصاه والمغفرة لمن أطاعه: أي أخذه للجبابرة والظلمة شديد (2).

ومن السياقات التي وردت فيها مثل هذه الإحالة قوله تعالى في سورة (التكوير): ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (التكوير: 27)، فرغم إحالة الضمير إلى عنصر معجمي تالٍ ؛ فإنّ الضمير يرتبط بما ذُكِرَ سابقاً في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ (التكوير: 19)، قد يكون المقصود بالرسول في الآية جبريل ؛ لكونه نزل به من جهة الله _سبحانه_ إلى رسول الله _صلّى

---

(1) انظر: تفسير الكشاف: 736/4.

(2) انظر: **الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت: 91/30.**

الله عليه وسلّم_ وقيل: المراد بالرسول في الآية (محمّد)، والأوّل أولى (1)، وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ** ﴾ (التكوير: 25) أُتبع بتوكيد آخر، وذلك بتحديد طبيعة هذا القول بجملةٍ مؤكّدة، هي قوله تعالى: ﴿ **إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ (التكوير: 27).

وفي قوله تعالى في سورة (الواقعة): ﴿ **فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ، وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ** ﴾ (الواقعة: 75_76)، الضمير في (**إِنَّهُۥ**) يُحيل إلى معنى القسم الذي يدل عليه (**أُقۡسِمُ**)، وهاتان الآيتان تُهيّئان للإشارة إلى شيءٍ عظيم وجليل، هو (القرآن الكريم) في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ** ﴾ (الواقعة: 77)، أي المقسم عليه، كما أنّ الآيات التالية تؤكّد هذه الدلالة، وهي قوله تعالى: ﴿ **فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ، لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ، تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ (الواقعة: 78_80). وهي تشترك في تفسير الضمير المبهم في (**إِنَّهُۥ**) (2).

واللافت في الأبنية التي ترد بالصورة السابقة أن المفسّر (العنصر الإشاريّ) غالباً ما يكون نكرةً موصوفة، نحو قوله تعالى في سورة النجم: ﴿ **إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ** ﴾ (النجم: 4)، وفي السورة ذاتها قول تعالى: ﴿ **إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ** ﴾ (النجم: 23)، " فالضمير يرجع إلى الأسماء لا إلى الأصنام: أي جعلتموها أسماءً لا جعلتم لها أسماء " (3). وفي قوله تعالى: ﴿ **إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ** ﴾ (الزخرف: 59)، ساهم ضمير الإحالة (**هُو**) في تأكيد عبوديّة عيسى _عليه السلام_ بقصره على العنصر الإشاري (**عَبۡد**)، وبالمطابقة بين المبتدأ والخبر، فوضعت هذه الآية حدّاً للجدل الذي أثير حول ألوهيّة عيسى _عليه السلام_ وعبوديّته، وإزالة الشك في طبيعة خلقه، وأنه كان عبداً نبيّاً من عباد الله

---

[1] انظر: الشوكاني، فتح القدير، المكتبة العصريّة، بيروت، ط1_ 1997: 100/5.

[2] انظر: فتح القدير: 212/5.

[3] فتح القدير: 136/5.

صالحاً ([1]).

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ (الدخان: 35).

جاء الضمير (هِيَ) مبتدأً مقصوراً على الخبر (مَوْتَتُنَا) ومطابقاً له في المعنى ؛ وهذا كلام كفّار قُريش، " فليست هي إلا الموتة الأولى التي نموتُها في الدنيا، ولا حياة بعدها ولا بعث " ([2]).

وقد يرد العنصر الإشاريّ (المفسّر) معرفةً، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (المؤمنون: 37)، فالعنصر الإشاريّ (حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا) معرفة ؛ لذا فهو واضحٌ ولا يحتاج إلى ارتباط عنصر الإحالة بما يفسّره في كلامٍ سابق.

السُّلَّميّة الإحاليّة:

وتقوم السلميّة الإحاليّة بين العناصر الإشاريّة ومجموعة العناصر الإحاليّة (الرئيسيّة) التي ترتبط بها في النصّ، وتُضبط درجاتها باعتماد عدد العناصر الإحاليّة التي تعود على كلِّ عنصر من العناصر الإشاريّة. فأهمّ عنصر إشاريّ في النصّ يرتبطُ به أكبرُ عدد من العناصر الإحاليّة التي تعود على كلِّ عنصر منها ([3]).

ويُقصد بالمجموعة الإحاليّة الرئيسيّة التي تشكّل البنية الإحاليّة المركّبة " المجموعة التي تتكوّن من وحدة أو وحدات إحاليّة رئيسيّة تجمع بين العناصر المكوّنة لها العودة على مفسّر واحد (أو عنصر إشاري واحد). وتنقسم هذه المجموعة إلى وحدة أو وحدات إحاليّة رئيسيّة. والمعيار في هذا الانقسام هو التركيب النحويّ. وكذلك نوع الإحالة: كانقسام الضمائر العائدة على مفسّر واحد في النصّ إلى ضمائر الغياب وضمائر الخطاب حسب مجال ورودها. فالعناصر التي ترد في مكوّن نحويّ واحد (جملة / نصّ فرعيّ) تكوّن في أعلى مستوى من تركيبها مجموعة إحاليَّة رئيسيّة واحدة " ([4]).

---

[1] أُنظر: المصدر السابق: 698/4.

[2] المصدر نفسه: 412/4.

[3] الأزهر الزناد، نسيج النصّ: ص 134.

[4] نسيج النصّ: ص 37.

ومن أمثلة السلّميّة الإحاليّة (التدرُّج الإحاليّ المُنْتَظَم) قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ، يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ، فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ، وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ، ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾(البقرة: 8_ 15).

حيثُ يتقدّم عنصر إشاريّ رئيسيّ أو مركزي، وهو كلمة (الناس) على كلّ العناصر الإشاريّة الأخرى المتفرّعة عنه، والمتعلّقة به، والتي تمثّلها العناصر المعجميّة الأخرى. ويكوّن العنصر الإشاريّ المركزيّ مع العناصر الإحاليّة المرتبطة مجموعة إحاليّة رئيسيّة. ومن جهة نوع الإحالة ؛ فإنّ الضمائر العائدة على العنصر الإشاريّ المركزيّ (المفسّر) تتنوّع بين ضمير الغيبة وضمير الخطاب، وبين الخطاب المباشر والخطاب غير المباشر، دون حدوث تداخل أو غموض في الفهم ؛ لأنّ الغَيْبة مرتبطة بوصف حالهم، والتكلّم مرتبط بقولهم ([1]).

وفي قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ، ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ، وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ وَٱلَّذِينَ ، هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ إلا ، عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ، وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ، وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ، ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا

---

[1] انظر: دراسات لغويّة تطبيقيّة: ص 106.

خَـٰلِدُونَ ﴾ (المؤمنون: 1_11).

يتقدّم العنصر الإشاريّ المركزي السورة وهو (المؤمنون)، وتعود عليه كلّ العناصر الإحاليّة بعده، متمثّلةً في ضمير الغيبة للجمع (هم، واو الجماعة)، ثمَّ تنتقل البنية الإحاليّة _في السورة ذاتها_ إلى بنية أخرى تكون فيها الإحالة خارج النصّ اللغويّ متمثّلةً في الذات الإلهيّة: ﴿ **وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلۡنَـٰهُ نُطۡفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ، ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَـٰمَ لَحۡمًا ثُمَّ أَنشَأۡنَـٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ‌ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَـٰلِقِينَ، ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٲلِكَ لَمَيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ تُبۡعَثُونَ، وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآٮِٕقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَـٰفِلِينَ** ﴾ (المؤمنون: 12_17).

فالذات الإلهيّة في النصّ السابق هي العنصر الإشاريّ المركزيّ الحقيقيّ على امتداد الآيات كلّها ؛ حيث أُسندت إليها الأفعال المختصّة بالخالق _سبحانه وتعالى_ فشكّلت بذلك وحدةً إحاليّة كاملة داخل السورة، تصدّرت فيها بنية الإحالة مجموعة الآيات من بدايتها، وجاء العنصر المركزيّ ضميراً بارزاً، يُفسّره العنصر الإشاريّ المركزيّ في النصّ القرآني، وهو الذات الإلهيّة التي يُحالُ إليها بشكلٍ صريح أو ضمنيّ.

المخالفة في الإحالة (الاستثناء البلاغي) :

تتمثَّل المخالفة بين الضمائر أو ما يسمّى بـ(الاستثناء البلاغي) في الظاهرة المشهورة المعروفة بـ(الالتفات)، وهي ظاهرة تختلُّ فيها المطابقة في الجهة أو العدد، دون الجنس.

وقد عرّف البلاغيّون الالتفات بأنّه: " التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة (التكلم، أو الخطاب، أو الغيبة) بعد التعبير عنه بطريق

آخر منها " (1)، أو هو " الاعتراض عند قوم، وسمّاه آخرون الاستدراك، وسبيله أن يكون الشاعر آخذاً في معنى ثم يعرض له غيره فيعدل عن الأول إلى الثاني فيأتي به، ثم يعود إلى الأول من غير أن يخل في شيء مما يشد الأول " (2).

فإذا كان الأصل في نظام الضمائر في العربية أن يستخدم كل ضمير لمرجع معين وفقاً لمقولات الجهة، والجنس، والعدد ؛ فإنَّ الضمير في هذا النوع من الإحالة يُخالف مرجعه، ويتمثّل هذا النوع من الالتفات في القرآن الكريم في عدّة صور، أشهرُها:

1_ **الالتفات من المتكلم إلى الغائب:** ومنه قوله تعالى: ﴿ **إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ** .﴾حيث عدل _عزَّ وجل_ عن الإشارة إلى ذاته بالضمير(نا)، إلى استخدام الاسم الظاهر (**لِرَبِّك**) كمعادلٍ لضمير الغائب، بدلاً من ضمير المتكلم (لي) أو (لنا).

2_ **الالتفات من الغائب إلى المتكلّم:** كما في قوله تعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ** ﴾ (فاطر:9) الذي اُلتفت فيه من الاسم الظاهر، وهو لفظ الجلالة (**ٱلله**)، والذي يعادل ضمير الغائب (هو) إلى ضمير المتكلم (نا) في(**فَسُقْنَٰه**).

3_ **الالتفات من المخاطب إلى الغائب:** كما في قوله تعالى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ**

---

(1) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق الشبخ بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت-1998: ص 72.

(2) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط 5- 1981: 45/2.

وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (يونس: 22). ففي قوله تعالى (وَجَرَيۡنَ بِهِم) خروج من الحضور إلى الغيبة، فكأنه قدر مفرداً غائباً يعاد الضمير عليه. والذي يظهر _والله أعلم_ أنّ حكمة الالتفات هنا أنّه خطاب فيه امتنان وإظهار نعمة للمخاطبين، والمسيَّرون في البرّ والبحر مؤمنون وكفار، والخطاب شامل، فحسن خطابهم بذلك ليستديم الصالح على الشكر. ولعل الطالح يتذكر هذه النعمة فيرجع، فلما ذكر حال الكافرين الباغين في الأرض بغير الحق في (وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ)، عدل عن الخطاب إلى الغيبة حتى لا يكون المؤمنون مخاطبين بصدور مثل هذه الحالة التي آخرها البغي ([1]).

4_ **الالتفات من التكلّم إلى الخطاب:** وتكمن فائدته في حث السامع وبعثه على الاستماع عند إقبال المتكلم عليه وأنه أعطاه فضل عناية وتخصيص بالمواجهة، كقوله تعالى: ﴿ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ، وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ ﴾ (الأنعام: 71_72)، أي قل يا محمد وأعلن أن هدى الله هو الهدى ؛ وأننا _من ثمَّ_ أمرنا أن نسلم لرب العالمين. فهو وحده الذي يستسلم له العالمون، ثمَّ التفت من ضمير التكلّم إلى ضمير الخطاب لبيان أهميّة التكاليف التعبدية والشعورية المترتّبة على الإسلام (وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ) ؛ فالأصل هو الاستسلام لربوبية ربّ العالمين، وسلطانه وتربيته وتقويمه. ثم تجيء العبادات الشعائرية ؛ وتجيء الرياضات النفسية ([2]).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ (يس: ٢٢)، الأصل: (وإليه أرجع)، فالتفت من التكلم إلى الخطاب، " وفائدته أنه أخرج الكلام في معرض مناصحته لنفسه وهو يريد نصح قومه تلطفاً وإعلاماً أنه يريده لنفسه، ثم التفت إليهم لكونه في مقام تخويفهم

---

[1] انظر: أبو حيّان الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1_1993: 142/5.

[2] انظر: سيّد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت- القاهرة، ط17- 1992: 1133/2.

ودعوتهم إلى الله " (1). وقد أنكر الزركشيّ وقوع الالتفات في الآية السابقة، وعلّل ذلك بقوله: " إنما يكون منه إذا كان القصد الإخبار عن نفسه في كلتا الجملتين وهاهنا ليس كذلك لجواز أن يكون أراد بقوله: (**وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ**) المخاطبين ولم يرد نفسه ويؤيده ضمير الجمع ولو أراد نفسه لقال: [نرجع] " (2).

5_ **الالتفات من الغيبة إلى الخطاب**، نحو قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا، لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدًّا** ﴾ (مريم: 88 - 89)، وقوله تعالى: ﴿ **أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارًا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ** ﴾ (الأنعام: 6)، ففي قوله تعالى: (**مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ**) خطاب التفات، وفي هذا الالتفات تعريض بقلة تمكين هؤلاء ونقصهم عن أحوال من سبق، وقيل إنَّ المخاطبة في (**لَّكُمۡ**) هي للمؤمنين ولجميع المعاصرين لهم وسائر الناس كافة، كأنه قال: مَا لَمْ نُمَكّن _يا أهل هذا العصر_ لكم، ويحتمل أن يقدر معنى القول لهؤلاء الكفرة (3). وقوله تعالى: ﴿ **وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ** ﴾(الأحزاب: 50) كان ابتداء الخطاب للنبي _صلّى الله عليه وسلّم_ (**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ**) فلما قال في الموهوبة (**خَالِصَة لَّكَ**) التفت من الغيبة إلى الخطاب فعُلم أنه له من دون المؤمنين، وما قبلها له ولغيره _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (4).

ومن محاسنه ما وقع في سورة الفاتحة قوله تعالى: ﴿ **مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ، إِيَّاكَ نَعۡبُدُ**

---

(1) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد متولي منصور، دار التراث، القاهرة، ط1-2007: 264/3.

(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة: 315/3.

(3) انظر: تفسير البحر المحيط: 80/4.

(4) انظر: البرهان في علوم القرآن: 218/2.

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة: ٤_5)، ففي قوله (**إِيَّاكَ**) التفات ؛ لأنه انتقال من الغيبة إلى الخطاب ؛ إذ لو جرى على نسق واحد لكان (إياه). ألا ترى أن المخاطب بـــ(**إِيَّاكَ**) هو الله ؟ وفائدة هذا الالتفات هو إظهار العبوديّة والخضوع لله. وكذلك أتى بالنون التي تكون له ولغيره، فكما أن الحمد يستغرق الحامدين كذلك العبادة تستغرق المتكلم وغيره (1). ويقول الإمام النسفيّ عن الالتفات عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾: " والعرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخلَ في القبول عند السامع وأحسنَ تطرية لنشاطه وأملأ لاستلذاذ إصغائه وقد تختص مواقعه بفوائد ولطائف قلما تتضح إلا للحذاق المهرة والعلماء النحارير وقليل ما هم " (2).

لقد بدا جلياً من خلال تتبّعنا لصور الالتفات في القرآن الكريم أنَّ للالتفات قيمةً كبيرة في تحقيق الترابط الضميريّ في النصّ القرآنيّ، بالإضافة إلى قيمته في التوكيد والتخصيص ولفت الانتباه. كما أنّ له _بالإضافة إلى ذلك_ غرضاً آخر، وهو التشويق ورفع السآمة عن المتلقّي ، فينتقل من الخطاب إلى الغيبة ، أومن المتكلم إلى الخطاب، أو الغيبة إلى التكلّم ؛ لأن الكلام المتوالي على ضمير واحد لا يستطاب (3). ولعل هذا الغرض هو من أهم الأغراض ؛ لأن النفوس تستريح وتستمتع إذا انتقل السياق من حال إلى حال وتغير لون الكلام.

ثانياً/البنية الإحاليّة لضمير الشأن:

ضميرُ الشأن هو الضمير الذي لم يتقدّمه ما يعودُ عليه، وسُمّي (ضمير الشأن) لأنه يرمز للشأن الذي سيدور الكلام عنه، وهو " ضميرٌ مبهم يكون في صدر جملة بعده، تفسّر دلالته وتوضّح المراد منه ومعناه " (4)، نحو قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ** ﴾ (البقرة: 85)، فـــ(**هُوَ**) ضمير الشأن تفسّره الجملة بعده. وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ**

---

1) انظر: تفسير البحر المحيط: 141/1.

2) تفسير النسفيّ، تحقيق مروان محمد الشعار، دار النفائس، بيروت- 2005: 7/1.

3) انظر: البرهان في علوم القرآن: 314/3.

4) عبّاس حسن، النحو الوافي: 252/1.

فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ (المائدة: 72)، فالهاء في (**إِنَّهُۥ**) ضمير الشأن يفسره ما بعده. وقد يُحذف ضمير الشأن أو يستتر، ويُقدّر في الكلام، نحو قوله تعالى: ﴿ **وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ** ﴾ (المائدة: 113) (**أَن**) مُخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف يفسّره جملة (**قَدۡ صَدَقۡتَنَا**).

والعربُ الفصحاء، ومن يحاكيهم اليوم، إذا أرادوا أن يذكروا جملة اسميّة أو فعليّة تشتمل على معنى هامّ، أو غرض فخم يستحقّ توجيه الأسماع والنفوس إليه، لم يذكروها مباشرةً خاليةً ممّا يدلّ على تلك الأهميّة والمكانة، وإنّما يقدّمون لها بضمير يسبقها، كقول أبي البقاء الرّندي في رثاء الأندلس:

هي الأمورُ كما شاهدتُها دولٌ   من سرَّه زمنٌ ساءته أزمانُ

"ويُشكّل ضميرُ الشأن بنيةً إحاليّة ذاتَ وظيفةٍ خاصّة، حرص النحاة على تأكيدها، وهم يتّفقون أساساً في أنّه مبهم، غائب مفرد، يتصدّر الجملة، يفسّره ما يليه، يُقصد به التعظيم والتفخيم، وهو كناية عن الجملة بعده، وتكون الجملة خبراً له وتفسيراً له أيضاً ؛ ولذا يُطلق عليه (ضمير الجملة)"([1]).

والسرّ في تقديم ضمير الشأن كما يحدّده **الخطيب القزويني** " أنّ السامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقي منتظراً لعقبى الكلام كيف تكون، فيتمكّن المسموع في ذهنه فضل تمكّن " ([2]).

ونبدأ بالسياقات التي يرد فيها تمهيد للضمير، نحو قوله تعالى: ﴿ **مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ** ﴾ (المائدة: 32). فالإحالة في بنية ضمير الشأن (**أَنَّهُۥ**) إحالة إلى عنصر إشاريّ (عظيم) وهو التحذير من قتل النفس بغير حقّ

---

[1] سعيد حسن بحيري، دراسات لغوية تطبيقيّة: ص 109.

[2] الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، تحقيق ودراسة عبد القادر حسين، مكتبة الآداب _ 1996: ص 101.

؛ لأنَّ من فعل ذلك فكأنّما قتل الناس جميعاً، في الوقت الذي قام فيه ضمير الشأن بالربط المعنويّ بين قوله (**كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ**) وقوله في الجملة التالية (**مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ**...)، فتحقّق بذلك ترابطٌ نصّيّ.

وفي قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (الأنعام: 54). فالإحالة في ضمير الشأن (**أَنَّهُۥ**) إحالة إلى عنصر إشاري يفهم من سياق الآية بعده (**مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ**...)، وهو الترغيب في التوبة والرجوع عن المعصية.

وقد ساهم ضمير الشأن _كذلك_ في عقد صلة وثيقة بين بنية الإحالة لضمير الشأن والجملة السابقة عليها (**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ**) والجملة التالية لها (**مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ**) ؛ يُؤيّد ذلك مجيء (**أَنَّهُۥ**) مفتوحة الهمزة على الإبدال من (**ٱلرَّحْمَةَ**) ([1])، فالصلة قوية بين رحمة الله وبين الرجوع عن فعل الشرّ.

وفي مثل قوله تعالى: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ** ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، تظهر الصلة بين إرسال الرسل جميعاً وبين الدعوة إلى عبادة الله الواحد، ويلاحظ _أيضا_ في الآية السابقة استخدام ضمير الخطاب في مقابل ضمير الشأن، وفي مثل قوله تعالى: ﴿ **يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ (النمل: 9). ولم يقل: " إنّني أنا الله "، ولو قاله لكان المعنى في التفخيم أقل منزلة من المعنى في قوله: " إنّه أنا الله " ؛ وذلك أنَّ ضمير الشأن (الهاء) ضميرٌ مبهمٌ غير راجعٍ إلى مذكور في اللفظ، فكان أبلغ في الدلالة على معنى التفخيم.

وقد يأتي ضمير الشأن في مقدّمة الجملة لشدّ الانتباه إلى ما يليه، رغبةً في تعظيمه وتفخيم شأنه في ذهن السامع ؛ ليظلَّ في حالة تنبّه لما سيكشفه الضمير من غموض. يقول

---

[1] انظر: أبو حيّان التوحيدي، تفسير البحر المحيط: 529/8، والزمخشري، الكشاف: 460/6.

الرضي: " والقصد بالإبهام ثمَّ التفسير تعظيم الأمر وتفخيم الشأن، فعلى هذا لابدَّ أن يكون مضمون الجملة المفسّرة شيئاً عظيماً يُعتنى به، فلا يُقالُ مثلاً: هو الذبابُ يطير " (1) ؛ ففي قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (هو) ضمير الشأن مبتدأ، وقوله (ٱللَّهُ أَحَدٌ) هو الشأن الذي هو عبارة عن (مبتدأ وخبر) في موضع خبر للضمير(هو) (2)، فالضمير لم يتقدّمه مذكور، وتفسّره الجملة بعده.

ويجوز أن يكون الضمير (هو) عائداً على الرب، أي (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ)، أي: (ربّيَ الله)، ويكون مبتدأ وخبراً، و(أحد) خبر ثانٍ. يقول الزمخشري: " و(أَحَدٌ) بدل من قوله: (ٱلله)، أو على: (هو أحد)، وهو بمعنى واحد " (3).

وقد اختلف النحاة في تحديد نوع الضمير المستخدم ومرجعه، وذهبوا في ذلك مذاهب عدّة، من ذلك_ مثلاً_ اختلافهم في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ (الأنعام: 3)، والذي يبدو أن (هُو) ضمير عائد على ما عادت عليه الضمائر قبله، وَهُوَ (ٱلله). وقد يكون (هُو) (ضمير الشأن) وَ(ٱلله) مبتدأ خبره ما بعده، والجملة مفسرة لضمير الشأن، والذي سوّغ هذا التفسير أنّه إذا لم يكن (هُو) ضمير الشأن، فإنّه يكون _بذلك_ عائداً على الله تعالى، فيصير التقدير: (ٱلله ٱلله)، فينعقد مبتدأ وخبر من اسمين متحدّيْن لفظاً ومعنى لا نسبة بينهما إسنادية، وذلك لا يجوز (4)، إلا في مقام التوكيد اللفظيّ.

وذهب خليل عمايرة إلى أنّ لفظ الجلالة (ٱلله) " إنّما ذُكر بعد ضمير الشأن لتفسيره وتأكيد دلالة التعظيم والتفخيم، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ " (5).

---

[1] شرح الرضيّ على الكافية، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط2_ 1996: 465/2.

[2] انظر: الكشاف: 353/2.

[3] الكشّاف: 460/6.

[4] تفسير البحر المحيط: 77/4.

[5] خليل عمايرة، آراء في الضمير العائد ولغة أكلوني البراغيث، دار البشير، عمّان، ط1_1989: ص 80.

ولكن يؤخذ على رأي د. عمايرة قصره قضية مرجع الضمير وبحثه القيمة الدلاليّة له في حدود الجملة وليس على مستوى النصّ، حيث تتعدّد الاحتمالات وتأويلات المفسّرين، ففي مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٤)، قيل: الظاهر أنَّ الضمير في ﴿وَأَنَّهُۥٓ﴾ عائد إلى الله، ويُحتمل أن يكون ضمير الشأن، يفُسّره الأمر العظيم المشار إليه في الجملة التالية، وهو البعث والحشر والحساب (1).

وأمّا قوله تعالى: ﴿ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٩٧)، فيقول فيه صاحب البحر المحيط: " وضمير(هِيَ) للقصة، كأنه قيل: فإذا القصة والحادثة (أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) (شَٰخِصَةٌ)، ويلزم أن تكون(شَٰخِصَةٌ) الخبر، و(أَبۡصَٰرُ) مبتدأ، ولا يجوز ارتفاع أبصار بـــ(شَٰخِصَةٌ) ؛ لأنه يلزم أن تكون بعد ضمير الشأن أو القصة جملة تفسر الضمير مصرح بجزأيها، ويجوز ذلك على مذهب الكوفيين " (2). وقال الزمخشري: " (هِيَ) ضمير مبهم توضحه الأبصار، وتفسره كما فسّر الذين ظلموا وأسروا " (3). وقال الفراء: " (هِيَ) ضمير الأبصار تقدمت لدلالة الكلام ومجيء ما يفسرها، ويقول: أصله فإذا (أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) هي (شَٰخِصَةٌ)، فشاخصة خبر عن (أَبۡصَٰرُ) كَنيت عنها، ثمَّ أظهرت الأبصارُ لِتفسّرها ؛ كما قال الشاعر:

لَعمرُ أبيها لا تقولُ ظعينتي ألا فرّ عنّي مالكُ بنُ أبي كعب

فذكر الظعينة وقد كنى عنها في (لَعمرُ) " (4).

---

[1] انظر: تفسير البحر المحيط: 477/4

[2] تفسير البحر المحيط: 315/6.

[3] الكشّاف: 165/4.

[4] أبو زكريّا الفرّاء، معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، ط3 _ 1983: 212/2.

ويقول ابن هشام: " متى أمكن الحمل على غير ضمير الشأن، فلا ينبغي أن يُحملَ عليه " ([1])، ومن ثمَّ ضعّف قول الزمخشريّ في قوله تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ ﴾ (الأعراف: ٢٧): إنَّ اسم (إنَّ) في (إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ) ضمير الشأن ([2])، " والأَولَى كونه ضمير الشيطان ؛ لأنّ ضمير الشأن لا يُعطف عليه " ([3]).

إنّ توجيه ابن هشام هو الأقرب إلى المنطق والعقل ؛ لأنه يتّفق ومعنى الآية، فالضمير في (إِنَّهُۥ) يعود على الشيطان، والضمير المنفصل (هُوَ) توكيد لضمير الفاعل في (يَرَىٰكُمْ) ليَحسُنَ العطفُ عليه بـــ(وَقَبِيلُهُۥ). و(وَقَبِيلُهُۥ) هم الجنّ والشياطين.

بين ضمير الغائب وضمير الإشارة:

يمكن استبدال أسماء (ضمائر) الإشارة بضمير الغائب في كلّ موقع تصلح فيه للربط بين عناصر الجملة ([4]) ؛ ذلك أنّ البنية الإحالية لضمير الإشارة والبنية الإحالية لضمير الغيبة تتّفقان في أمرين ([5]):

الأوّل: الدلالة على شيء عظيم.

الثاني: الإشارة إلى متقدّم وربطه بما يليه.

وإذا كان لضمير الشأن قيمةٌ إحاليّة معيّنة يمكن تتبعها على المستوى الجملة أو الجملتين، "فإنّها مع ذلك محدودة إذا قورنت بالقيمة الإحاليّة العالية والبارزة الّتي توفّرها ضمائر الإشارة، حيث تتجاوز قدرتها على تحقيق الترابط بين أجزاء الجمل إلى حتميّة اعتماد التسلسل أو الامتداد عليها على مستوى النصّ بأكمله"([6]). كما أنّه يمكن التبادل بين اسمي

---

[1]) ابن هشام الأنصاريّ، مغني اللبيب عن كتاب الأعاريب، تحقيق د. عبد اللطيف محمّد الخطيب، السلسلة التراثيّة، الكويت، ط1_ 2000: 542/5.

[2]) الكشّاف: 436/2.

[3]) مغني اللبيب: 542/5.

[4]) انظر: تمام حسّان، البيان في روائع القرآن، عالم الكتب، القاهرة، ط2– 2000: ص 140.

[5]) سعيد بحيري، دراسات لغويّة تطبيقيّة: ص 135.

[6]) سعيد بحيري، ظواهر تركيبيّة في مقابسات أبي حيّان التوحيدي، مكتبة الأنجلو مصريّة _ 1995: ص

الإشارة (هذا) و(ذلك) في النيابة عن ضمير الغائب (هو)، وقد فطن **الفرّاء** إلى إمكان التبادل حين قال: "... أن يكون (ذلك) على معنى يصلح فيه (هذا)، لأنّ قوله هذا وذلك يصلحان في كل كلام إذا ذكر، ثمّ أتبعته بأحدهم بالإخبار عنه " ([1]). ففي مثل قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (السجدة: 6) اسم الإشارة (**ذَٰلِك**) يُشير (يُحيل) إلى عظيم، وهو الخالق _سبحانه وتعالى_ عالم الغيب والشهادة، والذي تقدّم ذكره في مفتتح السياق ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ (السجدة: 4). فساهم اسم الإشارة في التفسير وتأكيد دلالة التعظيم والتفخيم، بالإضافة إلى دوره في تحقيق الربط التركيبيّ.

وفي قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (يوسف: ١٠٢) يوحي اسم الإشارة (**ذَٰلِك**) بعظم الحدث وهوله، ودوره في إبراز مغزى القصّة، ويساهم _في الوقت نفسه_ في تحقيق ذلك الترابطِ التركيبيِّ والمعنويِّ مع الآيات السابقة، بل على امتداد السورة بأكملها.

وفي مثل قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ (الكهف: 17)، فاسم الإشارة في قوله ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ يشير إلى شيء عظيم سابق، أي: شأنهم وحديثهم، وما صنعه الله بهم من ازورار الشمس عنهم آية من آياته. كلّ هذا المعنى وهذا الترابط والتسلسل لم يكن ليتحقّق لولا القيمة الإحاليّة والدلاليّة لاسم الإشارة.

أمّا في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص: ٨٣) ؛ فإنَّ اسم الإشارة (**تِلْك**) يقوم بدور الإحالة إلى

.260

[1] الفرّاء، معاني القرآن: 10/1.

شيء عظيم هو (**ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ**) ولفت الأنظار إليه من جهة، والربط بينه وبين أحداث قصّة قارون السابقة وافتتان الناس به وانقسامهم إلى فريقين إزاءه، وأخذ العبرة من ذلك من جهة أخرى.

ثالثاً/البنية الإحاليّة لضمير الفصل:

سُمِّيَ هذا الضمير فصلاً " لأنّه فُصِلَ به بين كون ما بعده نعتاً، وكونه خبراً ؛ لأنّك إذا قلت: زيدٌ القائمُ، جاز أن يتوهّمَ السامعُ كونَ (القائم) صفةً فينتظرُ الخبر، فجئت بالفصل، ليتعيّنَ كونه خبراً، لا صفة " (1) فتقول: زيدٌ **هو** القائمُ. " وتسميته بضمير الفصل من وضع البصريين. والكوفيّون يسمّونه بأسماء أخرى تتردّد أحياناً في كتب النحو " (2).

ويرى المستشرق الألماني برجشتر اسر " أن ضمير الفصل يدخل لربط المبتدأ بخبره، وأنَّ هذه الوسيلة في الربط قديمة شائعة في اللغات السامية، وربّما تكون هذه الوسيلة أقدم من الربط بالأفعال التي معناها (كان) " (3).

والغرض من ضمير الفصل هو الربط، ورفع اللَّبس بالتأكيد على أنّ ما بعد الضمير خبر، وأنّ هذا الربط قائم سواءٌ أكان الضمير فصلاً أم توكيداً. والذي يهمّنا _هنا_ هو البنية الإحاليّة لهذا الضمير.

إنَّ القول بأنّ ضمير الفصل يفيد التأكيد هو الأقرب إلى الواقع ؛ لأنَّ معنى زيدٌ **هو** القائم: زيدٌ **نفسُه** القائم، لكنّه تأكيد في المستوى الدلاليّ، وليس في المستوى التركيبي، أو بالمعنى الاصطلاحي عند النحاة (4).

وكثيراً ما يلتبس أمر الضمير بين احتمالين: الفصل أو الابتداء، ففي مثل قوله تعالى: ﴿ **وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (التوبة: ٤٠)، وقوله تعالى: ﴿ **إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ** ﴾ (يوسف: ٣٧)، وقوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ** ﴾ (الحجر: ٥٠)، وقوله: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ**

---

[1] الرضي، شرح الكافية: 456/2.

[2] النحو الوافي: 245/1.

[3] برجشتر آسر، التطور النحوي للغة العربية، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2_1994: ص 136.

[4] انظر: خليل عمايرة، آراء في الضمير العائد: ص 74.

ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ (الذاريات: ٥٨). فيجوز اعتبار الضمائر المنفصلة في الآيات السابقة ضمائر فصلٍ لا محلَّ لها من الإعراب، وأنّها جاءت لتوكيد الأسماء قبلها، ويجوز إعرابها مبتدآت وما بعدها أخباراً لها.

إنّ السمة التي تُميّز ضمير الفصل في الأمثلة السابقة هو إمكان حذف هذا الضمير الواقع بين طرفي الإسناد (في غير القرآن الكريم) ؛ لأنّ المسند لا يلتبس بالصفة إذا ما حذف، وعليه فإنّ علّة وجوده نحويّاً منتفية.

وممّا يثير هذا الالتباس أنَّ النحاة قد اشترطوا لتعيين الفصل والابتداء شروطاً غيرَ حاسمةٍ للتفريق بينهما، فاشترطوا في (الفصل) أن يقع بعد مبتدأ وقبل خبر، نحو قوله تعالى: ﴿ **وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ** ﴾ (البقرة: 5)، قال الزمخشريّ: " فائدته الدلالة على أنَّ ما بعده خبر لا صفة، والتوكيد، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره " ([1])، ومنهم من اشترط وقوعه قبل المنصوبات، نحو قوله تعالى: ﴿ **وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ (الزخرف: ٧٦). وقد يكون المتقدّم على الضمير اسماً ظاهراً أو ضميراً، نحو قوله تعالى: ﴿ **وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُم** ﴾ (آل عمران: ١٨٠). يقول الزمخشريّ في تفسيرها: " ولا يحسبنَّ (**ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ**) بخلهم، (**هُوَ خَيۡرٗا لَّهُم**)، والذي سوَّغ حذفه دلالة (**يَبۡخَلُون**) عليه " ([2]).

فقد أحال الضمير (**هُو**) في الآية السابقة إلى اسم سابق مشتقٍّ من الفعل (يبخلون)، فالإحالة _إذن_ إلى متقدّم، والضمير المنفصل (عنصر إحاليّ) تفسيره (عنصر إشاريّ متقدِّم)، وهو الاسم المشتقّ من الفعل. يقول سيبويه: " واعلم أنَّ (**هُو**) لا يحسن أن تكون فصلاً حتّى يكون ما بعدها معرفة أو ما أشبه المعرفة، فلو قلت: كان زيدٌ هو منطلقاً. كان قبيحاً " ([3]).

إنّ رأي سيبويه السابق فيه تكلّف كبير، وإنّ من الأيسر والأقرب إلى الواقع أن نعتبر الضمائر (هو، وهم، وأنا، وأمثالها) ضمائر فصل تفيد التخصيص والتوكيد، لا محل لها من

---

[1]) الكشّاف: 46/1.

[2]) المصدر السابق: 666/1.

[3]) سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط3 _ 1988: 392/2.

الإعراب، ويعرب ما بعدها حسب موقعه في الجملة، ففي مثل قوله تعالى (**وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا**)، (**هِيَ**) ضمير فصل لا محلّ له من الإعراب، وما قبلها مبتدأ وما بعدها خبر. وفي قوله تعالى (**كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ**)، (**هُم**) ضمير فصل يفيد التوكيد والتخصيص، و(**ٱلظَّٰلِمِين**) خبر كان، وهكذا. والشيء نفسه يقال في قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا** ﴾ (الكهف: ٣٩)، فضمير الفصل (**أَنَا**) للتوكيد والتخصيص، و(**أَقَلَّ**) مفعول به ثانٍ أو حال، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ** ﴾ (المزمل: ٢٠). (**خَيْرًا**) مفعول به ثانٍ، والضمير قبلها للتوكيد والتخصيص.

أمّا في مثل قوله تعالى: ﴿ **يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ (النمل: 9)، فإنَّ الظاهر أنَّ الضمير في(**إِنَّهُۥ**) ضمير الشأن (1) وهو في موضع اسم إنَّ، و(**أَنَا ٱللَّهُ**) جملة في موضع الخبر، وضمير الشأن لا يُؤكَّد، ولا يصلح أن يكون فصلاً ؛ للمخالفة في التكلُّم والغيبة (2).

وإن كان التوكيد يتحقّق بكلا النوعين (الفصل والابتداء) ؛ فإنّنا نرى أنَّ التوكيد يكون أبلغ مع ضمير الفصل ؛ لأنَّ في تكرار المبتدأ الثاني تكراراً لفظيّاً، فإذا حُذِف اختلَّ المعنى وضعُفت الدلالة، أمَّا إذا حُذِف ضمير الفصل لم يختلّ المعنى ؛ لأنه ليس (عمدةً) في الجملة، وإنّما هو إحالة إلى متقدِّم، ويكون التوكيد معنويّاً للركن الأوَّل أو الثاني أو لكليهما معاً، ففي مثل قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ (التوبة: ١١٨)، وقوله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ** ﴾ (الحديد: ٢٤)،

---

(1) انظر: تفسير البحر المحيط: 55/7.

(2) انظر: المصدر السابق: 56/7.

يجوز أن يكون الضمير (**هُو**) ضمير فصل أو مبتدأ، ولكنَّ القول بالفصل هو الأحسن ؛ لأنَّ فيه (إحالة) إلى متقدّم، تحقّق صلةً بين المتقدّم والمتأخّر تتضمّن توكيداً معنويّاً.

أما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ **وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا** ﴾ (النجم: 43_44)، ورد ضمير الفصل (**هُو**) لإفادة الحصر ؛ لأنّ الإضحاك والإبكاء والإماتة والإحياء قُدُرات خاصّة بالخالق القادر مقصورةٌ عليه، وإن ادّعاها بعضُ المتجبّرين الضالين.

وأيّاً كانت دلالة ضمير الفصل في الآيات السابقة وغيرها، فإنّه قد ساهم في تحقيق صلة معنويّة بين طرفي الإسناد، حيث يكون عنصراً محيلاً إلى الاسم السابق الذي يزيل الإبهام فيه من جهة ثمّ يعتمد عليه الكلام التالي لأنّه يُبنى عليه، فيكون جسراً تركيبيّاً دلاليّاً بين أجزاء الكلام، بل عاملاً قويّاً على إزالة أيِّ نوع من الإبهام (الإلباس) لدى المخاطب حين يتكرّر.

خاتمة

إنّ المتأمّل للإحالة بالضمائر يرى أنّها الوسيلة الأكثر قوّةً في صنع التماسك الدلاليّ للنصّ القرآني وتجسيد وحدته العامّة، وهي لا تقلّ دوراً وأهميّةً عن بقيّة الوسائل، مثل التكرار والحذف... إلخ، بل إنّها تعدّ الوسيلة الأكثر قدرةً على إيجاد التماسك والترابط وتحقيق الوحدة النصيّة، وذلك لأنّها تقرن بين الربط الرصفيّ والربط المفهوميّ، أي بين ما هو لفظيّ وما هو معنويّ.

كما أنّ قيمتها لا تتّضح على المستوى النحوي وضوحاً تامّاً، بل يجب أن ينظر إليها من منظور يوسّع قدر التداخل بين الأبنية، ويعقد صلة واضحة ومستمرّة بين السياقات الّتي تحكم دلالاتها العامّة والخاصّة فينكشف بجلاء جدوى البحث عن القوانين أو الضوابط الّتي تحقّق الترابط أو التماسك في النصّ القرآنيّ.

ولقد بدا واضحاً الدور الذي قامت به الضمائر (الذات والشأن والفصل) في إحكام بنية النصّ القرآنيّ وتماسكها ؛ فقد كانت الإحالة من خلالها إلى عناصر إشاريّة متقدّمة ولاحقة عاملاً قويّاً يسهم إلى جوار غيره من العوامل الأخرى في ربط أجزاء النصّ، وقد اشتركت العناصر الإحاليّة (المعجميّة والنصيّة) في إيجاد صلةٍ بين العناصر الإشاريّة

اللّغويّة الموجودة داخل النصّ القرآنيّ والعناصر الإشاريّة غير اللّغويّة الموجودة خارج النصّ.

وقد خرج الباحث من هذه الدراسة بمجموعة من النتائج، أهمّها:

1_ لم يقتصر دور الضمائر على الربط بين الجمل والآيات، أو تحقيق الترابط النصّي على مستوى السورة فحسب، بل كان لها _بالإضافة إلى ذلك_ دورٌ بارز في التفسير، وإزالة اللبس والإبهام عن كثير من السياقات، وذلك من خلال التعرّف على مرجع الضمير، ومدى الانسجام المعنويّ بينهما.

2_ برز دور ضمير الشأن في توضيح المعنى، وتعظيم الاسم (العنصر الإشاريّ المعجميّ) الذي يُحيل إليه، وتفخيمه، ممّا ساهم في إضفاء نوع من الرهبة والتقديس على الجوّ العام للسياق، ممّا يُساهم في إثارة انتباه المتلقّي ودافعيته، وتشويقه لمتابعة فهم النصّ.

3_ ساهم ضمير الفصل بدور كبير في تحقيق صلة معنويّة بين أجزاء الكلام، حيث يكون عنصراً محيلاً إلى الاسم السابق، فيكون بذلك عاملاً قويّاً في التأكيد والتخصيص، وإزالة أيِّ نوع من الإبهام.

4_ ظهر الالتفات في القرآن الكريم كوسيلة مؤثّرة في تحقيق الترابط على المستويين التركيبيّ والدلاليّ، بالإضافة إلى قيمته الواضحة في لفت الانتباه والتشويق وتحفيز المتلقّي، وتبديد جوّ الرتابة والسأم.

قائمة المصادر والمراجع

1. **أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النصّ**، دراسة في الدلالة والوظيفة، بحث في كتاب المؤتمر الثالث للعربيّة والدراسات النحويّة (العربيّة بين نحو الجملة ونحو النصّ)، كليّة دار العلوم، جامعة القاهرة _ 2005.
2. **الأزهر الزناد، نسيج النص** (بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً)، بيروت – الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي _ 1993.
3. **الألوسي، روح المعاني** في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
4. **ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، صيدا_ بيروت، 2006.

5. **برجشتر آسر، التطور النحوي للغة العربية**، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2_1994.
6. **تمام حسّان، البيان في روائع القرآن**، عالم الكتب، القاهرة، ط2 _ 2000.
7. **أبو حيّان الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط**، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1_1993.
8. **الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق الشبخ بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت – 1998.
9. **خليل عمايرة، آراء في الضمير العائد ولغة أكلوني البراغيث**، دار البشير، عمّان، ط1_ 1989.
10. **روبرت دي بوجراند، النصّ والخطاب والإجراء**، ترجمة تمام حسّان، عالم الكتب، القاهرة _1998.
11. **الزركشي، البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة.
12. **أبو زكريّا الفرّاء، معاني القرآن**، عالم الكتب، بيروت، ط3 _ 1983.
13. **ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5– 1981.
14. **الزمخشريّ، شرح المفصّل**، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1_ 2001.
15. **الزمخشريّ، الكشّاف**، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1_ 1998.
16. **سعيد حسن بحيري، دراسات لغويّة تطبيقيّة**، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة _ 1999.
17. **سعيد حسن بحيري، ظواهر تركيبيّة** في مقابسات أبي حيّان التوحيدي، مكتبة الأنجلو مصريّة _ 1995.
18. **سعيد حسن بحيري، علم لغة النصّ**، الشركة المصريّة العالميّة للنشر، لونجمان _ 1997.
19. **سيبويه، الكتاب**، تحقيق عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط3 _ 1988.
20. **السيوطي، الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق محمد متولي منصور، دار التراث، القاهرة، ط1 _ 2007.
21. **شرح الرضيّ على الكافية**، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط2_ 1996.
22. **الشوكاني، فتح القدير**، المكتبة العصريّة، بيروت، ط1_ 1997.
23. **عباس حسن، النحو الوافي**، دار المعارف، ط10 _ 1991.
24. **الفخر الرازي، التفسير الكبير**، دار الفكر، بيروت، ط1_1981.

25. **محمّد أحمد خضير، دور السياق في تقدير مرجع الضمير،** مجلّة علوم اللّغة، المجلّد الأوّل، العدد الأوّل، دار غريب _ 1999.
26. **محمّد خطّابي، لسانيّات النصّ،** المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء _ 1991.
27. **محمّد عبد الله جبر، الضمائر في اللّغة العربيّة،** دار المعارف بمصر _ 1980.
28. **ابن هشام الأنصاريّ، مغني اللبيب عن كتاب الأعاريب،** تحقيق د. عبد اللطيف محمّد الخطيب، السلسلة التراثيّة، الكويت، ط1_ 2000.